وتأمل عظمة الأسلوب فى ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] فلم يقل مثلاً أعطهم معروفاً ، إنما جعل المعروف مصاحبة تقتضى متابعتهما وتفقُّد شأنهما ، بحيث يعرف الابن حاجة أبويْه ، ويعطيهما قبل أنْ يسألا ، فلا يلجئهما إلى ذُلِّ السؤال ، وهذا فى ذاته إحسان آخر .

كالرجل الذى طرق بابه صديق له ، فلما فتح له الباب أسرَّ له الصديق بشىء فدخل الرجل وأعطى صديقه ما طلب ، ثم دخل بيته يبكى فسألته زوجته : لم تبكى وقد وصلْته ؟ فقال : أبكى لأننى لم أتفقد حاله فأعطيه قبل أن يذلَّ نفسه بالسؤال .

والحق - تبارك وتعالى - حين يقول بعد الوصية بالوالدين : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [لقمان] إنما لينبهنا أن البرَّ بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف لن يُنسى لك ذلك ، إنما سيُكتب لك ، وسيكون فى ميزانك ؛ لأنك أطعتَ تكليفى وأمرى ، وأدَّيْتَ ، فلك الجزاء لأنك عملتَ عملاً إيمانياً لا بُدَّ أن تُثاب عليه .

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ
فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ
يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾

﴿ يَٰبُنَيَّ .. (١٦) ﴾ [لقمان] نداء أيضاً للتلطف والترقيق ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. (١٦) ﴾ [لقمان] يريد لقمان أن يدل ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هى صفة العلم المطلق الذى لا تخفى عليه خافية ، وكأنه يقول له : إياك أن تظن أن ما يخفى على الناس

يخفى على الله تعالى ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾[الملك]

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل ، حتى إن كانت فى باطن صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دَقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند مسألة علم الله الخفى بخفايا خَلْقه ، وعند قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء] يقولون : الله يمتنُّ بعلم ما نكْتُم ، فكيف يمتنُّ بعلم الجهر ، وهو معلوم للجميع ؟

ونقول : الحق سبحانه فى قوله : ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠)﴾ [الأنبياء] لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جماعة ، فهو يعلم جَهْر الجماعة فى وقت واحد ، ومثَّلْنا لذلك بمظاهرة مثلاً ، فيها الآلاف من البشر يهتفون بأصوات مختلفة وشعارات شتى ، منها ما يعاقب عليه القانون ، فهل تستطيع مع اختلاط الأصوات وتداخلها أنْ تُميِّز بينها ، وتُرجع كل كلمة إلى صاحبها ؟

إنك لا تستطيع ، مع أن هذا جهر يسمعه الجميع ، أما الحق - تبارك وتعالى - فيعلم كل كلمة ، ويعلم مَنْ نطق بها ويردّ كل لفظ إلى صاحبه . إذن : من حقه تعالى أن يمتنَّ بعلم الجهر ، بل إن علْم الجهر أعظم من علْم السرِّ وأبلغ .

وقوله تعالى ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ .. (١٦)﴾ [لقمان] أى : وزن حبة الخردل ، وكانت أصغر شىء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس للقلة ، وليس لك الآن أن تقول : وهل حبة الخردل أصغر شىء فى

الوجود ؟ فالقرآن ذكرها مثالاً للصِّغَر على قدر معرفة الناس بالأشياء عند نزوله ، أما من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الذرة والأقلّ منها .

لذلك لما اخترعوا فى ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد (أى الجزء الذى لا يتجزأ) ، واستطاعوا تفتيت الذرة ، ظنوا أن فى هذه العملية مأخذاً على القرآن ، فقد ذكر القرآن الذرة ، وجعلها مقياساً دينياً فى قوله تعالى : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ [الزلزلة] لكن لم يذكر الأقلّ منها ، ومعلوم أن الجزء أصغر من كله .

ونقول : قرأتم شيئاً وغابت عنكم أشياء ، ولو كان لديكم إلمام بكلام الله لعلمتم أن فيه احتياطاً لما توصلتم إليه ، ولما ستتوصلون إليه فيما بعد ، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى عن الذرة : ﴿ **وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)** ﴾ [يونس]

بل نقول : إن الاحتياط هنا احتياط مركب ، فلم يقل صغير إنما قال (أصغر) وهذا يدل على وجود رصيد فى كلام الله لكل مُفتّت من الذرة .

وقوله : ﴿ **فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)** ﴾ [لقمان] ﴿ **فِي صَخْرَةٍ .. (١٦)** ﴾ [لقمان] أى : على حبكة الوجود ، وفى أضيق مكان ﴿ **أَوْ فِي السَّمَـٰوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ .. (١٦)** ﴾ [لقمان] يعنى : فى المتسع الذى لا حدود له ، فلا فى الضيِّق المحكم ، ولا فى المتسع يخفى على الله شيء ﴿ **يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)** ﴾ [لقمان] واستصحب حيثيات الإتيان بها بوصفين لله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)** ﴾ [لقمان]

وجمع بين هاتين الصفتين ؛ لأنك قد تكون خبيراً بالشيء عالماً بمكانه ، لكنك لا تستطيع الوصول إليه ، كأنْ يكون في مكان ضيق لا تنفذ إليه يدك ، وعندها تستعين بآلة دقيقة كالملقاط مثلاً ، فالخبرة موجودة ، لكن ينقصك اللطف في الدخول .

والحق - سبحانه وتعالى - لطيف ، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها ، فهو إذن عليم خبير بكل شيء مهما صغر ، قادر على الإتيان به مهما دقَّ ؛ لأنه لطيف لا يمنعه مانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل في الأشياء .

ونحن نعلم أن الشيء كلما دقَّ ولَطُف كان أعنف حتى في المخلوقات الضارة ، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمَنْ بنى بيتاً في الخلاء ، وأراد أنْ يُؤمِّن نوافذه من الحيوانات والحشرات الضارة ، فوضع على النوافذ شبكة من الحديد تمنع اللصوص والحيوانات الكبيرة ، ثم تذكَّر الفئران والثعابين فضيَّق الحديد ، ثم تذكَّر الذباب والناموس فاحتاج إلى شيء أضيق وأدقّ ، إذن : كلما كان عدوك لطيفاً دقيقاً كان أعنف ، واحتاج إلى احتياط أكثر .

فقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان] يعني : لا يعوزه علم بالمكان ، ولا سهولة ويُسْر في الوصول إلى الأشياء .

كانت هذه بعض وصايا لقمان ومواعظه لولده ، ولم يأمره حتى الآن بشيء من التكاليف ، إنما حرص أنْ يُنبهه : أنك قد آمنت بالله وبلغَك منهجه واستمعت إليه ، فأطع ذلك المنهج في افعل ولا تفعل ، لكن قبل أنْ تباشر منهج ربك في سلوكك اعلم أنك تتعامل مع إله قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغيب عنه شيء ، فادخل على المنهج بهذا الاعتقاد .

وإياك أنْ تتغلَّب عليك شبهة أنك لا ترى الله ، فإنك إنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك ، واعلم أن عملك محسوب عليك ، وإنْ كان فى صخرة صماء ضيقة ، أو فى سماء ، أو فى أرض شاسعة .

ويؤكد هذه المسألة قوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى : إنْ كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم ، فلَمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »[1] .

بعد ذلك يدخل لقمان فى وعظه لولده مجال التكليف ، فيقول له :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامة الصلاة ، والصلاة هى الركن الأول بعد أنْ تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن الصلاة لأهميتها فُرضت بالمباشرة ، ولأهميتها جُعلت ملازمة للمؤمن لا تسقط عنه بحال ، أما بقية الأركان فقد تَسقط عنك لسبب أو لآخر ، كالصوم والزكاة والحج ، فإذا سقطت عنك هذه الأركان لم يَبْق معك إلا الشهادتان والصلاة ؛ لذلك جعلها النبى ﷺ عماد الدين[2] .

---

(١) ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء فى حلية الأولياء (١٤٢/٨) أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظنى ، قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

(٢) حديث : « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشُعَب بسند ضعفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

ولذلك بدأ بها لقمان ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاةَ .. (١٧) ﴾ [لقمان] لأنها استدامة إعلان الولاء لله تعالى خمس مرات فى اليوم والليلة ، فحين يناديك ربك (الله أكبر) فلا ينبغى أن تنشغل بمخلوق عن نداء الخالق ، وإلا فما موقف الأب مثلاً حين ينادى ولده فلا يجيبه ؟ فاحذر إذا ناداك ربك ألا تجيب .

ثم تأمل النداء للصلاة الذى اهتدتْ إليه الفطرة البشرية السليمة ، وأقرَّه سيدنا رسول الله : الله أكبر الله أكبر ، يعنى أكبر من كل ما يشغلك عنه ، فإياك أن تعتذر بالعمل فى زراعة أو صناعة أو تجارة عن إقامة الصلاة .

وقد ناقشتُ أحد أطباء الجراحة فى هذه المسألة ، فقال : كيف أترك عملية جراحية من أجل الصلاة ؟ فقلت له : بالله لو اضطررتَ لقضاء الحاجة تذهب أم لا ؟ فضحك وقال : أذهب ، فقلت : فالصلاة أوْلَى ، ولا تعتقد أن الله تعالى يكلِّف العبد تكليفاً ، ثم يضنّ عليه باتساع الزمن له ، بدليل أنه تعالى يراعى وقت العبد ومصالحه وإمكاناته ، ففى السفر مثلاً يشرع لك الجمع والقصر .

فبإمكانك أنْ تُوفِّق صلاتك حسب وقتك المتاح لك ، إما بجمع التقديم أو التأخير ، وكم يتسع وقتك ويخلو من مشغولية العبادة إذا جمعتَ الظهر والعصر جمْعَ تقديم ، والمغرب والعشاء جَمْع تأخير فى آخر وقت العشاء ؟ أو حين تجمع الظهر والعصر جمعَ تأخير ، فتصليهما قبل المغرب ، ثم تصلى المغرب والعشاء جمع تقديم ؟

إذن : المسألة فيها سعة ، ولا حجةَ لأحد فى تَرْك الصلاة بالذات ، أما الذين يقولون فى مثل هذه الأمور ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] وأن هذا ليس فى وُسْعى .. فنقول لهم :

لا ينبغى أنْ تجعل وُسْعك هو الحكم ، إنما التكليف هو الحكم فى الوُسْع ، وما دام ربك - عز وجل - قد كلَّفك فقد علم سبحانه وُسْعك وكلَّفك على قدره بدليل ما شرعه لك من رُخَص إذا خرجتْ العبادة عن الوُسْع .

وقال ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ .. (١٧) ﴾ [لقمان] لأن الصلاة أول اكتمال فى الإجماع لمنهج الله ، وبها يكتمل إيمان الإنسان فى ذاته ، وسبق أن قلنا : إن هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، أركان الإسلام هى الخمس المعروفة ، أمَّا أركان المسلم فهى الملازمة له التى لا تسقط عنه بحال ، وهى الشهادتان والصلاة ، وإنْ كان على المسلم أنْ يؤمن بها جميعاً ، لكن فى العمل قد تسقط عنه عدا الصلاة والشهادتين .

ثم يبين لقمان لولده : أن الإيمان لا يقف عند حدِّ الاستجابة لهذين الركنين الأساسيين ، إنما من الإيمان ومن كمال الإيمان أنْ تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، فيقول له : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٧) ﴾ [لقمان] فانشغل بعد كمالك بإقامة الصلاة ، بأنْ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فبالصلاة كَمُلْتَ فى ذاتك ، وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنقل الكمال إلى الغير ، وفى ذلك كمال الإيمان .

وأنت حين تأمر بالمعروف ، وحين تنهى عن المنكر لا تظن أنك تتصدَّق على الآخرين ، إنما تؤدى عملاً يعود نفعه عليك ، فبه تجد سعة الراحة فى الإيمان ، وتجد الطمأنينة والراحة الذاتية ؛ لأنك أديْتَ التكاليف فى حين قصَّر غيرك وتخاذل .

ولا شك أن فى التزام غيرك وفى سيره على منهج الله راحة لك أنت أيضاً ، وإلا فالمجتمع كله يَشْقَى بهذه الفئة القليلة الخارجة عن منهج الله .

ومن إعزاز العلم أنك لا تنتفع به الانتفاع الكامل إلا إذا عدَّيْته للغير ، فإنْ كتمته انتفع الآخرون بخيرك ، وشقيتَ أنت بشرِّهم . إذن : لا تنتفع بخير غيرك إلا حين تؤدى هذه الفريضة ، فتأمر غيرك بالمعروف ، وتنهاه عن المنكر ، وتحب لهم ما تحب لنفسك ، وبذلك تنال الحظين ، حظك عند الله لأنك أديْتَ ، وحظك عند الناس لأنك فى مجتمع متكامل الإيمان ينفعك ولا يضرك .

ولك هنا أن تلحظ أن هذه الآية لم تقرن إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة كعادة الآيات ، فغالباً ما نقرأ : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. (٤٣) ﴾ [البقرة]

وحين نستقرىء كلمة الزكاة فى القرآن الكريم نجد أنها وردت اثنتين وثلاثين مرة ، اثنتان منها ليستا فى معنى زكاة المال المعروفة النماء العام إنما بمعنى التطهر ، وذلك فى قوله تعالى فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ .. (٧٤) ﴾ [الكهف]

ثم قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف]

والمعنى : طهرناهم حينما رفعنا عنهم باباً من أبواب الفتنة فى دين الله .

والموضع الآخر فى قوله تعالى : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً .. (١٣) ﴾ [مريم] فالمعنى : وهبنا لمريم شيئاً نُزكيها به ؛ ذلك لأن الزكاة

أول ما تتعدى تتعدَّى من واجد لمعـدم ، ومريم لم تتزوج فهى مُعْدَمة فى هذه الناحية ؛ لذلك وهبها الله النماء الخاص من ناحية أخرى حين نفخ فيها الروح من عنده تعالى .

وفى موضع واحـد ، جاءت الزكاة بمـعنى زكاة المال ، لكن غـير مقرونة بالصـلاة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم]

وفى هذه الآية قـال لـقمـان لولده : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٧)﴾ [لقمان] ولم يقل : وآت الزكاة ، فلماذا ؟

ينبـغى أن نشيـر إلى أن القرآن جـمع بين الصلاة والـزكاة ؛ لأن الصلاة فـيها تضـحيـة بالوقت ، والوقت زمن العمل ، والعـمل وسيلة الكسب والمـال ، إذن ؛ ساعـة تصلى فـقد ضـحـيْتَ بالوقت الذى هو أصل المـال ، فكأن فـى الصـلاة تـصـدقـت بمـائـة فى المـائة من المال المكتسب فى هذا الوقت ، أمّا فى الزكاة فأنت تتصدَّق بالعُشْر ، أو نصف العشر ، أو رُبْع العـشر ، ويبقى لك معظم كـسبك ، فالواقع أن الزكاة فى الصلاة أكبر وأبلغ من الزكاة نفسـها .

إذن : لما كانت الزكـاة فى كل منهما ، قرن القـرآن بينهما إلا فى هذا الموضع ، ولما تتأمله تجده من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالقرآن يحكى هذه الوصايا عن لقمان لولده ، ولنا فيه ملحظان :

الأول : أن الله تعـالى لم يكلِّف العـبد إلا بعـد سِنِّ البلوغ إلا فى

الصلاة ، وجعل هذا التكليف مُوجهاً إلى الوالد أو ولى الأمر ، فأنابه أن يكلف ولده بالصلاة ، وأن يعاقبه إنْ أهمل فى أدائها ، ذلك ليربى عند ولده الدُّرْبة على الصلاة ، بحيث يأتى سنّ التكليف ، وقد ألفها الولد وتعوَّد عليها ، فهى عبادة تحتاج فى البداية إلى مران وأخذ وردٍّ ، وهذا أنسب للسنِّ المبكرة .

والوالد يُكلِّف ولده على اعتبار أنه الموجد الثانى له ، والسبب المباشر فى وجوده ، وكأن الله تعالى يقول : أنا الموجد لكم جميعاً وقد وكَّلتُك فى أنْ تكلِّف ولدك ؛ لأن معروفك ظاهر عنده ، وأياديك عليه كثيرة ، فأنت القائم بمصالحه المُلَبِّى لرغباته ، فإنْ أمرته قَبل منك وأطاعك ، فهى طاعة بثمنها .

وطالما وكلتك فى التكليف فطبيعى أنْ أُوكِّلك فى العقوبة ، فإنْ حدث تقصير فى هذه المسألة فالمخالفة منك ، لا من الولد ؛ لأننى لم أُكلِّفه إنما كلَّفْتُك أنت .

لذلك بدأ لقمان أوامره لولده بإقامة الصلاة ، لأنه مُكلَّف بهذا الأمر ، فولده ما يزال صغيراً بدليل قوله ﴿ يَـٰبُنَيَّ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] فالتكليف هنا من الوالد ، فإنْ كان الولد بالغاً حال هذا الأمر فالمعنى : لاحظ التكليف من الله بإقامة الصلاة .

أما الزكاة ، وهى تكليف من الله أيضاً فلم يذكرها هنا - وهذه من حكمة لقمان ودقَّة تعبيره ، وقد حكاها لنا القرآن الكريم لنأخذ منها مبادىء نعيش بها .

ثانياً : إنْ كلَّفه بالزكاة فقال : أقم الصلاة وآت الزكاة فقد أثبت لولده ملكية ، ومعروف أن الولد لا ملكيةَ له فى وجود والده ، بدليل

قول الرسول ﷺ : « أنت ومالك لأبيك »(١) وذكرنا أن لقمان لما علم بموت أبيه قال : إذن ملكتُ أمرى(٢) فأمره ليس ملْكاً له فى حياة أبيه ؛ لذلك لم يأمر ولده بالزكاة ، فالزكاة فى ذمته هو ، لا فى ذمة ولده .

وتتأكد لدينا هذه المسألة حين نقرأ قول الله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور]

فالله تعالى رفع عنَّا الحرج أنْ نأكل من هذه البيوت ، وتلحظ أن الآية ذكرتْ الأقارب عدا الأبناء ، وكان الترتيب المنطقى أن يقول بعد أمهاتكم : أو بيوت أبنائكم ، فلماذا لم يذكر هنا بيوت الأبناء ؟ قالوا : لأنها داخلة فى قوله : بيوتكم ، فبيت الابن هو بيت الأب ، والولد وما ملكتْ يداه ملْكٌ لأبيه .

ثم يقول لقمان لولده : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧) ﴾ [لقمان]

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن أبى اجتاح مالى ، فقال : « أنت ومالك لأبيك » وقال رسول الله ﷺ : « إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من أموالهم » أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٢٩٢) وأحمد فى مسنده (١٧٩/١) . واللفظ لابن ماجه .

(٢) أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد الزهد عن عبد الله بن دينار : إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام فى الطريق فقال : ما فعل أبى ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمرى . [الدر المنثور ٥١٩/٦] .

الصبـر : حَمْل النفس علـى التجلُّد للأحـداث ، حتى لا تعـينَ الأحداث على نفسك بالجـزع ، فأنت أمام الأحداث تحـتاج إلى قوة مضـاعفة ، فكيف تُضعف نفسك أمامها ؟

والمصيبة تقع إما لك فيها غريم ، أو ليس لك فيها غريم ، فالذى يسقط مثلاً ، فتنكسر ساقه ، أو الذى يفاجئه المرض .. الخ هذه أقدار سـاقهـا الله إليك بلا سـبب فـلا غريمَ لك فـيـها ؛ لذلك يجـعلهـا فى ميزانك : إما أنْ يعلى بها درجاتك ، وإما أنْ يُكفِّر بها سيئاتك ؛ لذلك كان الكفـار يفرحون إذا أصاب المـسلمين مصيـبة ، كما فـرحوا يوم أُحُـد ، وقد ردَّ الله عليـهم وبيَّن غـباءهم ، وقـال سـبحـانه : ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** .. (٥١) ﴾ [التوبة] وتأمل الجـار والمجـرور (لنا) ولم يقُلْ كـتب علينا ، إذن : فـالمـصيـبـة فى حسـاب (له) لا (عليه) فلماذا تفرحون فى المصيبة تقع بالمسلمين ؟

وأوصى بالصـبر بعـد الأمر بالمـعـروف والنهى عن المنكر ؛ لأن الذى يتـعرض لهـذين الأمرين لا بُدَّ أن يصـيبـه سوء من جـراء أمره بالمعروف أو نَهْيه عن المنكر ، فإنْ تعرضْت للإيذاء فاصبر ؛ لأن هذا الصبر يعطيك جزاءً واسعاً .

وتغيير المنكر له مراحل وضحها النبى ﷺ فى قوله : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّـره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسـانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

فالله أمـرك أنْ تُغيِّر المنكر ، لكن جـعل لك تقدير المسـألة ومدى

---

(١) أخرجـه مسلم فى صـحيحـه (٤٩) كتاب الإيمـان ، وأحمـد فى مسنده (٣ / ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

إمكانك فيها ، فالدين يـريدك مُصلحاً لكن لا يريد أنْ تلقى بنفسك إلى التهلكة ، فلك أنْ تُغـيِّر المنكر بيدكَ فتضـرب وتمنع إذا كان لك ولاية على صاحب المنكر ، كأن يكون ولدك أو أخاك .. إلخ .

فلك أن تضربه مثلاً إنْ رأيتَ سيـجارة فى فمه ، أو أنْ تكسر له كأس الخـمر إنْ شربها أو تمـزق له مثلاً ورق « الكوتشـينة » ، فإنْ لم تكُنْ لك هذه الاسـتطاعـة فيكفى أنْ تُغـيِّـر بلسانك إنْ كـانت لديك الكلمـة الطيبـة التى تداوى دون أن تجرح الآخـرين ، ودون أنْ يؤدى النصح إلى فتنة ، فيكون ضرره أكثر من نفعه .

فـإنْ لم يكُنْ فى اسـتطاعـتك هذه أيضـاً ، فليكُنْ تغـيـيـر المنكر بالقلـب ، فـإنْ رأيتَ منكراً لا تمـلك إلا أنَّ تقـول: اللهم إنَّ هـذا منكر لا يرضيك لكن أيُعَدُّ عمل القلب تغيـيراً للمنكر وأنت مطالب بأنْ تُغيِّره بيدك يعنى : إلى ضده ؟ وهل هذه الكلمة تغير من الواقع شيئاً ؟

قالوا : لا يحـدث التغيـير بالقلب إلا إذا كان القـالب تابعاً للقلب ، فـالقلب يشـهـد أنَّ هذا منكـر لا يُرضى الله ، والقـالب يسـاند حـتى لا تكون منافقـاً ، فأنت أنكرتَ عليه الفعل ، ولا اسـتطاعة لك على أنْ تمنعه ، ولا أن تنصحه ، فلا أقلَّ من أنْ تعـزله عن حياتك وتقاطعه ، وإلاَّ فكيف تُـغـيِّـر بقلبك إنْ أنكرتَ عـليـه فـعله وأبقـيتَ على وُدِّه ومعاملته ؟

إذن : لا يكون التغيـير بالقلب إلا إذا أحسَّ صاحب المنكر أنه فى عزلة ، فـلا تهنئه فى فرح ، ولا تعزيه فى حـزن ، وإنْ كنتَ صاحب تجارة ، فلا تَبِعْ له ولا تشتر منه .. الخ .

ومـا اسـتـشرى البـاطل وتَبجـح أهل الفسـاد وأهل المنكر إلا لأن الناس يحترمـونهم ويعاملونهم على هذه الحال ، بل ربمـا زاد احترام

الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم .

فالتغيير بالقلب ليس كلمة تقال إنما فعل وموقف ، وقد علَّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذه القضية في قوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء]

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

والنبى ﷺ فى قصة الثلاثة(١) الذين خُلِّفوا بغير عذر فى غزوة تبوك ، يُعلِّمنا كيف نعزل أصحاب المنكر ، لا بأن نعزلهم فى زنزانة كما نفعل الآن ، إنما بأن نعزل المجتمع عنهم ، ليس المجتمع العام فحسب ، بل عن المجتمع الخاص ، وعن أقرب الناس إليه .

وقد تخلف عن هذه الغزوة عدة رجال اعتذروا لرسول الله فقَبِل علانيتهم وترك سرائرهم لله ، لكن هؤلاء الثلاثة لم يجدوا لأنفسهم عذراً ، ورأوا أنهم لا يستطيعون أنْ يكذبوا على رسول الله ، ولم يحبسهم الرسول ، إنما حبس المجتمع عنهم حتى الأقارب ، فكان الواحد منهم يمشي و (يتمحك) فى الناس ليكلمه أحد منهم ، فلا يكلمه أحد ، وكعب بن مالك(٢) يتسوَّر على ابن عمه الحديقة ، ويقول

---

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع العامرى .

(٢) هو : كعب بن مالك بن أبى كعب الأنصارى ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بنى سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، ما خلا تبوك ، وتاب الله عليه ، ذهب بصره فى آخر حياته ، وتوفى عام ٥٠ هـ فى خلافة معاوية ، وهو يومئذ ابن ٧٧ عاماً أى أنه ولد ٢٧ ق هـ .

له : تعلم أني أحب الله ورسوله فلا يجيبه . ويصلي بجوار الرسول يلتمس أنْ ينظر إليه ، فلا ينظر إليه[١] .

ولما نجحت هذه المقاطعة على هذا المستوى أعلاها الشرع وتسلسل بها إلى الخصوصيات في البيت ، فعزل هؤلاء الثلاثة عن زوجاتهم ، فأمر كلاً منهن ألاَّ يقربها زوجها إلى أن يحكم الله في أمرهم[٢] ، حتى أن واحدة[٣] من هؤلاء جاءت لرسول الله وقالت : يا رسول الله ، إن زوجي رجل كهدبة الثوب (يعني : ليست له رغبة في أمر النساء) فأذن لها رسول الله في أن تخدمه على ألاَّ يقربها .

ظل هؤلاء الثلاثة ثلاثين يوماً في هذا الامتحان العام وعشرة أيام في الامتحان الخاص ، ونجح المجتمع العام ، ونجح المجتمع الخاص، وهكذا علَّمنا الشرع كيف نعزل أصحاب المنكر وأهل الجريمة ، فعزل

---

(١) يروى لنا كعب بن مالك هذه الأيام العصيبة ، فيقول : « أما هلال بن أمية ومرارة بن الربيعة فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرَّك شفتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني . [صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩] كتاب التوبة .

(٢) جاء رسول من عند رسول الله ﷺ إلى كعب بن مالك يقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها فلا تقربنَّها . (صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩) .

(٣) هي : خولة بنت عاصم ، امرأة هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين خلفوا . [قاله ابن حجر في الفتح ٨/١٢١] ويروى مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) والبخاري في صحيحه (٤٤١٨) أن امرأة هلال بن أمية جاءت رسول الله ﷺ وقالت : « يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا » .

المجتمع عنهم أبلغ من عزلهم عن المجتمع ، لذلك كان وَقْع هذه العزلة قاسياً على هؤلاء .

فهذا كعب بن مالك يحكى قصته ويقول : لقد ضاقت بى الأرض على سعتها ، والحق يقول فى وصف حالهم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة]

فلما استوى المجتمع العام والمجتمع الخاص على منهج الله فرَّج الله عن هؤلاء الثلاثة ، ونزل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ [التوبة]

فأسرع أحدهم[1] يبشر كعباً بهذه البشرى فطار كعب فرحاً بها ، وقال : فوالله ما ملكتُ أنْ أخلع عليه ثيابى كلها ، ثم أستعير ثياباً أذهب بها إلى رسول الله[2] .

إذن : ينبغى أن نعزل المجتمع كله عن أصحاب المنكر ، لا أن نعزلهم هم فى السجون ، لكن مَنْ يضمن لنا استقامة المجتمع فى تنفيذ هذه العزلة كما نفذها المجتمع المسلم على عهد رسول الله ؟

نعود إلى ما كنا نتحدث عنه من أن المصيبة إذا كانت قدراً من الله ليس لك فيها غريم ، فإن الصبر عليها هيِّن ، فالأمر بينك وبين ربك ، أما إنْ كان لك فى المصيبة غريم كأن يعتدى عليك أحد فيحرق

(١) هو : حمزة بن عمرو الأسلمى ، ذكره ابن حجر العسقلانى فى الفتح (شرح حديث رقم ٤٤١٨) .

(٢) قطعة من حديث كعب بن مالك الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) .

زرعك أو يقتل ولدك ، فهذه تحتاج إلى صبر أشد ، فكلما رأيتَ غريمك هاجتْ نفسك وغلى الدم فى عروقك ، فيحتاج إلى طاقة أكبر ليحمل نفسه على الصبر .

لذلك يقول سبحانه فى هذه المسألة : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] فأكَّدها باللام ؛ لأنها تحتاج إلى طاقة أكبر من الصبر وضبط النفس حتى لا تتعدى كلما رأيت الغريم ، وهذا من المواضع التى وقف عندها المستشرقون يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله .

يقولون : ما الفرق بين قول القرآن ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان] وقوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

ثم أيهما أبلغ من الأخرى ، فإنْ كانت الأولى بليغة فالأخرى غير بليغة .

ونقول فى الرد عليهم : كل من الآيتين بليغة فى سياقها ، فالتى أُكِّدت باللام جاءت فى المصيبة التى لك فيها غريم وتحتاج إلى صبر أكبر ، أما الأخرى ففى المصيبة التى ليس لك فيها غريم ، فهى بينك وبين ربك ، والصبر عليها هيِّن يسير .

لذلك ، فالحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفِّى النفس ويمنع ثورتها ، فيقول : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى] لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل ، ثم يُرقِّى المسألة ، ويفتح باباً للعفو : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (٤٠) ﴾ [الشورى] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

فحين يبيح لك ربك أنْ تأخذ بحقك تهدأ نفسك ، وربما تتنازل عن هذا الحق بعد أن أصبح في يدك ؛ لذلك كثيراً ما نرى - خاصة في صعيد مصر حيث توجد عادة الأخذ بالثأر - القاتل يأخذ كفنه على يديه ، ويدخل به على ولى الدم ، ويُسلِّم نفسه إليه ، وعندها لا يملك ولى الدم إلا أن يعفو .

حتى فى مسألة القتل والقصاص يجعل الحق سبحانه مجالاً لترقية النفس البشرية وأريحيتها ، بل ويُسمِّى الطرفين إخوة فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ففى هذا الجو وفى أثناء ما تسيل الدماء يُحدِّثنا ربنا عن العفو والإحسان والأخوة ، ومعلوم أن هناك فَرْقاً بين أن تأخذ الحق ، وبين أنْ تنفذ أخذ الحق بيدك .

فالله تعالى خالق النفس البشرية ويعلم ما جُبلَتْ عليه من الغرائز وما تُكنّه من العواطف ، وما يستقر فيها من القيم والمبادىء ، لكنه - سبحانه وتعالى - لا يبنى الحكم على ارتفاع المناهج فى الإنسان ، إنما على ضوء هذه الطبيعة التى خلقه عليها ، فليس الخَلْق كلهم على درجة من الورع تدعوهم إلى العفو والصفح ؛ لذلك أعطاك حقَّ الرد بالمثل على مَن اعتدى عليك ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى] وقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

ومع ذلك حين تتأمل هذه الآيات تجد أن تنفيذها من الصعوبة بمكان ، فمَنْ لديه القدرة والمقاييس الدقيقة التى تُوقفه عند حدِّ المثلية التى أمر الله بها ؟

وسبق أنْ بيَّنا : أنه إذا اعتدى عليك شخص وضربك مثلاً ، أتستطيع أنْ تضربه مثل ضربته لا تزيد عليها ، لأنك إنْ زدتَ صرْتَ ظالماً ، واقرأ بقية الآية : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) ﴾ [الشورى]

وسبق أنْ ذكرنا قصة المرابي اليهودى الذى اتفق مع مدينه على أنْ يقطع من جسمه رطلاً ، إذا لم يُؤدِّ فى الموعد المحدد ، وفعلاً جاء موعد السداد ، ولم يَفِ المدين ، فرفع اليهودى أمره إلى القاضى وأخبره بشرطه ـ وكان القاضى مُوفَّقاً قد نوَّر الله بصيرته ، فقال لليهودى : نعم لك حَقٌّ في أن تُنفذ ما اتفقنا عليه ، وسأعطيك السكين على أنْ تأخذ من المدين رطلاً من لحمه فى ضربة واحدة ، بشرط إذا زدتَ عنها أو نقصتَ أخذناه من لحمك .

وعندها انصرف اليهودى ؛ لأن المثلية لا يمكن أن تتحقق ، فكأن الله تعالى بهذا الشرط ـ شرط المثلية فى الردِّ ـ يلفت انتباهك إلى أن العفو أوْلَى بك وأصلح .

إذن : يُحدِّثنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن العفو وعن الإحسان فى المصيبة التى لك فيها غريم ، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذى قرره لك فقد أرحتَ نفسك ، لكن حرمتها الأجر الذى تكفَّل الله لك به إنْ أنت عفوتَ .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء ، فالذى كان من حقك أنْ تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحتْ حياته ملْكاً لك ، فهل يفكر لك فى سوء بعدها ؟

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وأذكر أننى جاءنى مَنْ يقول : والله أنا دفعتُ بالتى هى أحسن مع خصمى ، فلم أجده ولياً حميماً كما قال الله تعالى ، فقلت له : عليك أن تراجع نفسك ؛ لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، ولو دفعتَ بالتى هى أحسن لَصدق الله معك ، ورأيت خَصْمك ولياً حميماً ، إنما أنت تريد أنْ تُجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ .

والنبى ﷺ يُعلِّمنا أنْ نبقى على يقين التوكل سارياً دون أنْ نفكر كيف يحدث ، وقصة الصحابية أم مالك[1] شاهدَة على ذلك ، فقد كان عندها غنم تحلب لبنها ، فتصنع مما زاد عن حاجتها وحاجة أولادها زبداً ، وكانت تهدى منه إلى رسول الله فى عكة[2] عندها ، فكان أهل بيت رسول الله يُفرغون هذه العكة فى آنيتهم ، ثم يعيدونها إليها وهكذا .

حتى قالت أم مالك[3] : والله ما أصبتُ إداماً إلا من هذه العكة ، وكانت كلما احتاجت الإدام أفرغتْ العكة ، فوجدت بها الإدام حتى بعد أن أفرغها أهل بيت الرسول ، لكن خُيِّل لها فى يوم من الأيام أنها أسرفت فى استعمال هذه العكة ، وظنت أن ما بها من إدام قد نفد ، فأخذتها وعصرتها ، فلم تجد فيها شيئاً ، فظنت أن رسول الله غاضب

(١) هى : أم مالك الأنصارية . ذكرها ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٢٧٨/٨) .

(٢) العكة : أصغر من القربة للسمن ، وهو زُقَيْق صغير . [لسان العرب ـ مادة : عكك] .

(٣) حديث مسلم (٢٢٨٠) عن جابر بن عبد الله أن أم مالك كانت تهدى للنبى ﷺ فى عكة لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألون الأُدْم . وليس عندهم شىء ، فتعمد إلى الذى كانت تهدى فيه للنبى ﷺ ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأتت النبى ﷺ فقال : عصرتيها ؟ قالت : نعم . قال : لو تركتيها ما زال قائماً .

منهـا ، فـذهبت إليه وقـصَّتْ عليـه هذه المـسـألة ، فقـال لهـا ﷺ : « أعَصرتيـها يا أم مالك ؟ » فقالت : نعم يا رسول الله ، فـأخبرها أن التجـربة مع الله شكٌ وأنها لو لم تعـصرها ولم تظن هذا الظن لبـقيتْ العُكَّة على حالها ، وكما تعودت منها[1] .

وتلحظ أن كلمـة (أصابك) والمصـيبـة تدل على أنها واقـعة بك ولن تنجو منها ؛ لأنها قدر أرسل إليك بالفعل ، وسيصيبك لا محالة ، والمـسألة مـسـألة وقت إلى أنْ يصلك هذا السـهم الذى أُطلق عليك ، فإياك أنْ تقـول : لو أنى فعلت كذا لكان كـذا ، فما سُـمِّيت المصيـبة بهذا الاسم إلا لأنهـا صائبتك لا تستطـيع أنْ تفرَّ منها . كمـا يقولون عن المـوت : تأكد أنـك ستـموت ، وعـمـرك بمقـدار أنْ يصلك سـهم الموت .

وكلمة ﴿ مِنْ عَـزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] نقـول : فلان له عـزم ، ونسمع القرآن يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] العزم : الفرض المـقطوع به ، والذى لا مناصَ عنه ، ومنه ما جاء فى قول لقـمان لما خـيَّره ربه بين أن يكون رسولاً أو حكيـماً ، فاخـتار الراحة وترك الابتلاء ، لكنه قـال : يا رب إنْ كانت عزمةً منك فسـمعاً وطاعة ، يعنى : أمراً مفروضاً ينبغى ألاَّ نحيد عنه .

والعزم يعنى شحن كل طاقات النفـس للفعل والقطع به ، فالصلاة على الميت مثلاً لا تُسمَّى عزيمة ؛ لأنهـا فرض كفاية إنْ فعلها البعض سقطتْ عن الباقـين ، على خلاف الصلاة التامة فى السفـر مثلاً حيث يعتبـرها الإمام أبو حنيفة عـزيمة لا رخصة ، فإن أتـممت الصلاة فى

---

(١) قال النووى فى شـرحه لصحـيح مسلم (١٥/٤٦) : « قال العلمـاء : الحكمة فى ذلك أن عصرها مضاد للتسليم والتوكل على رزق الله تعـالى ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة وتكلُّف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله فعوقب فاعله بزواله » .

السفر أسأت[1] ، عملاً بقول النبى ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه »[2] .

والمعنى : لا ترد يد الله المبسوطة لك بالتيسير فى الصلاة أثناء السفر .

ثم يعتمد فى هذا الرأى على دليل آخر من علم الأصول هو أن الصلاة فُرضَتْ فى الأصل مثنى مثنى ، ثم أقرت فى السفر وزيدت فى الحضرَ . إذن : فصلاة السفر مع الأصل ، فلو أتممتَ الصلاة فى السفر أسأتَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى : تصعر من الصَّعَر ، وهو فى الأصل داء يصيب البعير يجعله يميل برقبته ، ويشبه به الإنسان المتكبر الذى يميل بخدِّه ، ويُعرض عن الناس تكبّراً ، ونسمع فى العامية يقولون للمتكبر (فلان ماشى لاوى رقبته) .

فقول الله تعالى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] واختيار

(١) الحنفية والمالكية متفقون على أن قصر الصلاة الرباعية فى السفر سنة مؤكدة ، ولكنهم مختلفون فى الجزاء المترتب على تركه . فالحنفية يقولون : من أتم يكون مسيئاً بترك الواجب ، وهو إن كان لا يعذب على تركه بالنار ، ولكنه يُحرم من شفاعة النبى ﷺ يوم القيامة . أما المالكية فيقولون : إذا تركه المسافر فلا يُؤاخذ على تركه ، ولكنه يحرم من ثواب السنة المؤكدة فقط ، ولا يحرم من شفاعة النبى » [الفقه على المذاهب الأربعة ٤٧١/١] دار إحياء التراث العربى .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٠٨/٢) وابن حبان (٥٤٥ ، ٩١٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .